The Poetics of Water in the Mu'allaqat:
An Analytical and Interpretive Study of Self, Space, and Other through Symbolism

Ali Araibi[1]

Faculty of Arts and Humanities of Sfax,
University of Sfax, Tunisia

Science Step Journal / SSJ

2025/Volume 3 - Issue 9

To cite this article: Araibi, A. (2025). The Poetics of Water in the Mu'allaqat: An Analytical and Interpretive Study of Self, Space, and Other through Symbolism. Science Step Journal, 3(9). 275-286.
https://doi.org/10.5281/zenodo.15787023 ISSN: 3009-500X.

Abstract

Water emerges as a central motif in the poetry of the Mu'allaqat, the renowned collection of pre-Islamic "gilded poems," serving as a vital lens through which to explore the cultural and existential dimensions of life in the Arabian Peninsula. The vivid water imagery found within these poems reflects not only the harsh and shifting desert environment but also the deeper philosophical concerns of the pre-Islamic poets. Through these diverse portrayals of water, the poems reveal complex relationships between the self, the natural environment, and the social world—relationships marked by longing, pride, contemplation, and the quest for identity. This study investigates the symbolic role of water in the Mu'allaqat, examining how these poetic "water scenes" articulate the tensions and harmonies between the individual and their surroundings, as well as between the self and others. Water, in this context, acts as a metaphorical gateway to understanding the multifaceted conflicts and desires that shape human existence in this era. Employing an analytical and interpretive methodology, this research is structured into two main sections, each comprising several focused subtopics. It aims to illuminate the nuanced ways in which water imagery enriches the Mu'allaqat's thematic and aesthetic complexity, underscoring its enduring relevance for appreciating pre-Islamic literary and cultural identity.

Keywords

Philosophy of Water, Water Weather, Water Poetry, Liquid Images

[1] PhD Researcher in Arabic, specializing in Literature
Email: araybi.ali2015@gmail.com

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

شعرية الماء في المعلقات:
دراسة تحليلية وتأويلية في الذات والمكان والآخر من خلال الرمزية

علي عرايبي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس،
جامعة صفاقس، تونس

ملخص

الإبداع تُعتبر إشكاليّة الماء، واحدة من الإشكاليات المهمّة الّتي يُمكن الاستناد إليها للولوج في شعر المُعلّقات. قامت هذه المُعلّقات أو المُذهّبات على مجموعة من المشاهد المائيّة، تعكس طبيعة الحياة في الجزيرة العربية. تُمكّننا هذه الصّور المائيّة المختلفة من تبيّن رؤية الشّاعر الجاهلي للوجود، ومن فهم علاقة الذّات بالمكان وبالآخر. تعيش هذه الذّات صراعات وتجارب مُتبايّنة بحثًا عن جوهرها الخالص. وشكّل الماء مدخلًا أساسيًّا لفهم هذه الكيانات المختلفة. ومن ثمّة، تتمحور إشكاليّة البحث حول رمزيّة الماء في شعر المُعلَّقات، تُعنى بإبراز كيفيّة توظيف اللّوحات المائيّة للتّعبير عن مختلف معاني الحنين والفخر والتّأمّل والحكمة. اعتمد شعراء المُعلّقات على الصّور المائيّة لتصوير هذه الدّلالات وغيرها. وهو ما سنحاول تقصّي بعض معالمه. ومن هنا، تأتي وجاهة هذا العمل وراهنيته. ومن هنا، يأتي اهتمامنا بمسألة الماء في شعر المعلّقات. وقد سعينا إلى توخّي منهجيّة تحليليّة وتأويليّة. وقد قسّمنا البحث إلى عنصرين أساسيين، يتخللهما مجموعة من العناصر الفرعيّة.

الكلمات المفتاحية

فلسفة الماء. الطّقس المائي. شعرُ الماء. الصّور السّائلة.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

التّمهيد:

يُشكّل الماء قيمة وجودية وبيولوجية وحياتيّة، وأساس استمرار الكائنات الحيّة. وقد مثّلت المنابع المائيّة مجال صراع القبائل، ومدار نمائها وقوّتها. عاشت التّجمّعات القَبَليّة قديمًا في ترحّل دائم. فلا تكاد تُنيخ إبلها، وتُقيم خيامها، وتنصب أثافيها، حتّى تُخامرها الرّغبة في السّفر ثانية بحثًا عن مصادر الماء والمراعي. نشأ الشّعر العربيّ في بيئة صحراوية قاحلة، تتّسم بقسوة المناخ، وضراوة الطّبيعة، وصعوبة التّضاريس، واشتداد الحرارة. وتبعًا لهذه العوامل وغيرها، ازدادت الحاجة إلى الموارد المائيّة. فقد مثّل الماء مادة عالية القيمة، ومدار صراع وتنافس، فَمَن يستحوذ على مصادر الماء، يمتلك أسباب القوّة والبقاء والهيمنة.

وفي ظلّ هذه المسارات المُتباينة، تخلّق شعر المُعلّقات. أكسبت هذه الأنساقُ وغيرها الشّاعرَ الجاهليَّ وعيًا مائيًّا بالعالم من حوله. فتحوّل الماء إلى أداة حيوية لرؤية لعالم وللتّفاعل معه، ومجالًا فعّالا لمقاربة الوجود، ولتدبّر قضايا الإنسان والحب والبقاء والفخر والحنين والتذكّر. حاول الشّعراء تنزيل التّدفّقات المائيّة ضمن تصوّراتهم الشّعريّة، وعملوا على تحويل الصّور المائيّة إلى أبعاد شعريّة، تعكس تجارب شعوريّة وحالات وجوديّة، وتُبرز تمثّلاتهم للكون وللأشياء.

وبناءً على ما سبق، خصّصنا هذا المقال لتبيّن دلالات الماء وطرق تشكيلها في المُعلّقات السّبع "للزوزني". فكيف تَمَثَّل شعراء المُعلّقات الماء في قصائدهم؟ وما دلالاته الرّمزيّة في نصوصهم؟ وإلى أي مدى تعكس صور الماء رؤيّة الشّاعر الجاهلي للوجود؟

1: في نظريّة الماء

وفي السّياق ذاته، اهتمَّ "غاستون باشلار" Gaston Bachelard في جزء من أعماله الفلسفيّة بدلالة الماء وأبعادِهِ الفلسفيّةِ والنّفسيّةِ والإبداعيّةِ. ليس الماءُ وفقًا لهذا الفيلسوف مجرّدَ مادةٍ فيزيائيّة، وإنّما هو قيمةٌ رمزيّةٌ ودلاليّةٌ وخياليّةٌ، يقترن بالوجودِ والحياة والتّحوّل والحركة والصّيرورة. وإلى جانب ذلك، يُشكّلُ الماء مصدرًا للإلهام الفلسفي والشّعريّ. يعتقد باشلار أنّ المعرفةَ المائيّةَ معرفةٌ قبْليّةٌ حقيقيّةٌ، تتعلّق بالدّور النّفسيّ للتّجاربِ الطّبيعيّة. وتتحقّق هذه المعرفةُ ضمن ما يُسمّيه الفيلسوفُ بمرآة المياه miroir des eaux. وبواسطة هذه المرآة، يُمكّنُنا الماءُ من تحييدِ صورتِنا naturaliser notre image، ومن إعادةِ العفويّةِ والبراءةِ إلى تأمّلاتنا. يستدلُّ باشلار بأسطورةِ "نرسيس" الّذي رأى انعكاسَ صورتِهِ على صفحةِ الماء فأحبّها. ومن ثمّة، تحوّلَ الماءُ إلى مرآة، تُبصرُ فيها الذّات ملامِحَها، وتعيشُ معها مغامراتٍ وقصصًا. عند هذا الحدّ، يشعرُ "نرسيس" أنّه مُكرّرٌ بشكلٍ طبيعيٍّ naturellement doublé، يَمدُّ ذراعَهُ ليلمسَ صورتَهُ الخاصّةَ، وليتحدّثَ مع صوتِه الخاص، ويتكلّمَ مع حوريّةِ الينابيعِ والغابات "إيكو" Écho، وهي تجسيدٌ للصّدى. وأمام المياهِ، يكتَشِفُ نرسيس هويّتَهُ وثُنائيّتَهُ، ويكشف اقتداراتِه المُزدوجةَ الرّجوليّةَ والأنثويّة، ويكشف واقعه ومثاليته الخاصّة. وهو ما يتولّد عنه نرجسيّة مثاليّة un narcissisme idéalisant[2].

[2] انظر:

Gaston Bachelard, ***Léau et les rêves : Essai sur l'imagination de la matière***, librairie José Corti, Paris, 1942, p 37

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

ينصُّ باشلار على أنّ العالم مرآة عصرنا، وارتدادُ قوانا. وهو إرادةٌ وخصمٌ في الآن ذاته. وكلّما عظُمت الإرادة، عظُم الخصمُ. تغدو هذه المرايا في تصوّرات الفيلسوف حيّة وطبيعيّة. ترتبط بالخيال وبالحلم وبالعمليّة الشّعريّة، إذْ تُعدُّ تجربة المرآة منطلقًا للوجود الشّعريّ، وتقترن بالتّدفّقات المائيّة. يقول الفيلسوف: "على الشّاعر الّذي ينطلق من المرآة أن ينتهي مع الينبوع إذا شاء أن يُقدّم تجربته الشّعريّة كاملة. ينبغي أن ترتهن التّجربة الشّعريّة _في نظرنا_ بالتّجربة الحُلميّة. ومن النّادر أن يخرج عن هذا القانون شعرٌ مصوغ بعناية مثل شعر مالارميه Mallarmé. إذْ يعرض لنا انصهار صور الماء في صور المرآة"[3].

يرى باشلار أنّ الشّعر تركيبٌ طبيعي ودائم من الصّور المُفتعلة في الظّاهر images en apparence factices. يريد كلٌّ من الشّاعر والغازي أن يضعا علامة قوّتهما على العالم. يأخذ كلٌّ منهما العلامة بيده، ويُملي شروطه على الكون الرّاضخ. وما يبدو لهما حاضرًا سرمديًّا، هو الحقيقة العميقة للخيال الحرّ. والاستعارة غير المقبولة منطقيًّا، والغريبة نفسيًّا، هي حقيقة الشّعر. ذلك أنّ الاستعارة ظاهرةُ الرّوح le phénomène de l'âme الشّعريّ، إنّها ظاهرة الطبيعة phénomène de la nature، إسقاط une projection للطّبيعة البشريّة la nature humaine على الطّبيعة الكونيّة la nature universelle [4].

يرتبط الماء في تصوّرات غاستون باشلار باللاوعي، وبالحلم والعوالم المجرّدة. ويقترن بمفاهيم الغموض والعمق. ويُشكّل عوالم رؤيويّة عمادها التّفكير الحدسي، والمغامرة المعرفيّة، والتّجريب الحسيّ. يتّصلُ بالذّاكرة والرّؤيا، ويعكس تدفّق المشاعر واندفاع الرّؤى. ويُعبّر عن البدايات الجديدة، وعن الخلق والإنشاء. وهو حامل تناقضات، يُشير إلى الهدوء والسّلام. وفي الوقت نفسه، يرمز إلى القوّة والتّدمير. وهو ما يجعله حامل دلالات رمزيّة مُتباينة. ويربط باشلار بين الماء والخيال. ويعتقد أنّ الماء هو العين الحقيقيّة للأرض، وهو الّذي يحلم في عيوننا. ويُشبّه العيون البشريّة بالبِرَك الصّغيرة، وهي بِرَكٌ غير مُكتشفة من النّور السّائل lumière liquide الّذي وضعه الله في أعماقنا. ويرى أنّ الماء هو الّذي يرى ويُفكّر ويحلم. وهو كذلك، نظرة الأرض، وجهازها لمشاهدة الزّمن[5].

يُعدُّ الماء حسب باشلار مصدر إلهامِ الشّعراء والكتّاب. فهو يُجسّدُ المشاعر الإنسانيّة العميقة حزنًا وفرحًا وحنينًا. وهو علامة طبيعيّة وجماليّة، تحتوي على عدد لا حصر له من الأبعاد النّفسيّة والرّوحيّة والتّخييليّة، يعكس الانفعالات الإنسانيّة والرّؤى الوجوديّة. وهو ما يُسمّيه باشلار بشعر الماء la poésie de l'eau. وتقوم شعريّة الماء على الاحتفاء بالمشاهد المائيّة. وتعتمد على تصوير السّواقي الرّاقصة، والجداول الضّاحكة، والشّلّالات الصّاخبة. ويعتبر الفيلسوف هذه اللّوحات المُتغيّرة اللّغة الطّفوليّة للطّبيعة le langage puéril de la nature. ففي السّواقي تتكلّم الطبيعة الطّفلة la nature enfant. ووفقًا لباشلار، ما ينبغي لهذه الطّفولة الشّعريّة cet

[3] انظر

Gaston Bachelard, ***Léau et les rêves : Essai sur l'imagination de la matière***, p 36

[4] انظر:

Ibid, p 210

[5] انظر:

Ibid, p 36

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

infantilisme poétique المائيّة أن تجعلنا نبخَس فُتوّةَ المياه la jeunesse des eaux، ودرسَ الحيوية la leçon de vivacité الّتي تمنحنا إياه المياه الجارية[6].

اهتمّ باشلار بدراسة الوحدة الصّوتيّة لشعر الماء l'unité vocale de la poésie de l'eau، وأقام تصوّره على مبادئ اللّغة والماء والإيقاع. وانتهى إلى أنّ الماء سيّد اللّغة السّائلة langage fluide، السّلسة والمتواصلة، اللّغة الّتي تجعل الإيقاع مُنسابًا، وتمنح الإيقاعات المختلفة المادة المُتجانسة. وتبعًا لذلك، لا تتوانى اللّغة عن وهب معناها الكامل للتّعبير الّذي يخلق نوعيّة شعر سائل، شعر ينهل من معين صاف. يُعرِّفُ باشلار السّيولة la liquidité بأنّها رغبةُ اللّغة وإرادتها. فاللّغة تُريد أن تسيل le langage veut couler، وهي تسيل ببساطة. أمّا انتفاضاتها ses soubresauts ووعورتها وصلابتُها، فهي المُحاولات الأكثر تصنّعًا، والأصعب إجراءً[7].

توقّف غاستون باشلار عند أنواع من المياه، من بينها: المياه الرقراقة Les eaux claires والرّبيعيّة les eaux printanières والجارية les eaux courantes والعاشقة Les eaux amoureuses والعميقة Les eaux profondes والرّاكدة les eaux dormantes والميّتة les eaux mortes والمُركّبة les eaux composées، والماء الأمومي L'eau maternelle، والأنثوي l'eau féminine ، والعذب l'eau douce والعنيف l'eau violente. ووفقًا لهذه التّصوّرات، يُعدُّ الماء نوعًا من الجواهر une sorte de substance.

ويُقسّم غاستون باشلار هذا الماء المُتخيَّل eau imaginée إلى صنفين اثنين: ماء الفرح eau de la joie ، وماء الألم eau de la peine. تبدأ حكاية الماء conte de l'eau حسب باشلار من ماء رقراق يدخل بأكمله في انعكاس فسيح، ضاج بموسيقى شفّافة. وينتهي في عمق ماء حزين غائم، في عمق ماء ينقل همسات غريبة وجنائزيّة. فحُلم اليقظة la rêverie في جوار الماء، وهو يجد موتاه، يموتُ أيضًا موتَ كونٍ غارق univers submergé. ويرى باشلار أنّ قدر كلّ ماءٍ حيّ أن يتباطأ ويتثاقل. ويعتقد أنّ كلّ ماء حيٍّ، ماءٌ على وشك أن يموت. والحال أنّ الأشياء في الشّعر الفاعل، ليست ما هي كائنة عليه، وإنّما هي ما تصير إليه. وأن نتأمّل الماء يعني تمامًا أن نسيل، أن نذوب، أن نموت[8].

سعى غاستون باشلار إلى اقتفاء بعض هذه السّمات الجماليّة والدّلاليّة في شعر "إدغار ألان بو" Edgar Allan Poe. وانتهى إلى أنّ بعض القصائد تُشبه حلم يقظة إبداعيّ rêverie créatrice. فهي تقوم على ما يُسمّى بمُطلق الانعكاس l'absolu du reflet، أي النّظر إلى الأعمال الشّعريّة باعتبارها انعكاسًا كليًّا للواقع. ويرى باشلار أنّ الانعكاس في بعض النّصوص يبدو أكثر واقعيّة من الواقع نفسه، فهو أكثر نقاء. وبما أنّ الحياةَ حلمٌ في حلمٍ، فإنّ الكون انعكاسٌ في انعكاس. إنّه صورة مطلقة une image absolue. وفي السّياق ذاته،

---

[6] انظر:

Ibid, pp, 47,48

[7] انظر:

Gaston Bachelard, ***Léau et les rêves : Essai sur l'imagination de la matière***,, p 213

[8] انظر:

Ibid, pp, 63,64

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

يعتقد أنّ البُحيرة حين تعكس صورة السّماء، تخلقُ سماءً في رحمها. ويعتبر الماء في شفافيته الفتيّة l'eau en sa jeune limpidité سماءً معكوسة، فتكتسبُ الكواكب والعناصر السّماوية حياة جديدة[9].

ويربط باشلار بين الشّعر والحلم، ويعتبر الحُلمَ قوّةً من قوى الطّبيعة. ويرى أنّ الشّاعر حالِمٌ، يهربُ من المجتمع، ويتّخذُ العالم رفيقًا وحيدًا. وداخل عزلته، يحتفظ الشّاعر الحالم بقيم حُلميّة des valeurs oniriques مُرتبطة باللّغة، ويحتفظ بالشّعر الخاص بلغة أصله. فالكلمات الّتي يُلصقها بالأشياء، تُضفي طابعًا شعريًّا وروحيًّا عليها. ولا يُمكن لهذه القصائد أن تتخلّص كليًّا من ثقل الواقع رغم سعيها الدّؤوب إلى ذلك. والشّاعر الأكثر تجديدًا، وهو يشتغل بحلم اليقظة الأكثر تحرّرًا من العادات والأعراف الاجتماعيّة، يحمل بين طيّات قصائده العمق الاجتماعي للّغة. تمنح العناصر الحُلميّة القصائد وحدتها، وصلابتها الشّعريّة، وأسرار ديمومتها. تحفظ هذه العناصر أفكارنا وأحلامنا ومشاعرنا، ثمّ تُعيد تنزيلها داخل أعمال شعريّة[10].

2: الطّقس المائي في شعر المُعلّقات

يرتبط الماء في المدوّنة الشّعريّة العربيّة القديمة بمنظومة فكريّة ورمزيّة مُتعدّدة، تُصوّر طبيعة الحياة في الفضاء العربيّ بيئيًّا وثقافيًّا ومعرفيًّا. نشأ الشّعر العربيّ في بيئة صحراويّة قاحلة، تتّسم بضراوة المُناخ، وقساوة الطّبيعة، وضنك العيش. من أجل ذلك، ازدادات الحاجة إلى الماء. فهو لا يُمثّل حاجة بيولوجيّة، وأداة حيوية للعيش فحسب، وإنّما يُمثّل قيمة شعريّة ورمزيّة أيضًا. وتبعًا لذلك، شكّلت الكيانات المائيّة حيّزًا رمزيًّا ذا دلالات رمزيّة واسعة في أعمال الشّعراء. وفي ذلك، وظّف الشّاعر طرفة بن العبد الماء بوصفه طقسًا طلليًّا وعلامة للوجد والفقد والحنين. "والعلامة بهذا المعنى هي الوسيط الجامع بين الإنسان والمعرفة"[11]. وفي هذا الصّدد، يقول الشّاعر في معلّقته:

"كأنَّ حُدُوجَ المالِكِيَّةِ غُدْوَةً خلايَا سَفينٍ بِالنَّواصِفِ منْ دَدِ

عَدُولِيَّةٌ أَو منْ سَفينِ ابْنِ يامِنٍ يَجُورُ بها المَلّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدي

يَشُقُّ حَبابَ الماءِ حَيْزُومُها بها كما قَسَمَ التُّربَ المُفايلُ بِاليَدِ"[12]

---

[9] انظر:

Ibid, p 64

[10] انظر:

Gaston Bachelard, ***Léau et les rêves : Essai sur l'imagination de la matière***,, p 158

[11] محمّد بن عيّاد، **في المواجهة التّأويليّة**، شركة مطبعة كونتاكت، مخبر المناهج التأويلية، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس، صفاقس، تونس، ط1، 2021، ص 18

[12] حسين بن أحمد بن حسين الزوزني، **شرح المُعلّقات السّبع**، «**مُعلّقة طرفة بن العبد**»، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر، ط1، 2007، صص، 97.96

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

يرتبط الماء في مُعلّقة طرفة بن العبد بالأطلال، فهو يُشكّلُ طقسًا طلليًّا مُركّبًا. يحتلُّ قسم الأطلال مكانًا جوهريًّا في الشّعر الجاهلي، وقد دأب أصحاب المُعلّقات على استهلال قصائدهم بذكر الطّلل، أي آثار الدّيار القديمة الّتي كانت تسكنها حبيباتهم. ويرتبط ذكر الأطلال بمشاعر الحزن والحنين والحبّ والتّأمّل والفراق. ويعتمد على وصف بقايا المنازل، ويُصوّر حالة الخراب والهوان الّتي حلّت بالمكان بعد رحيل ساكنيه. لم يزغ طرفة بن العبد عن هذه المُقوّمات الدّلاليّة والفنيّة. فقد استهلَّ مُعلّقته بالبكاء على الأطلال، وذكر بقايا آثار ديار الحبيبة، وشبّهها ببقايا النّقوش في ظهر اليد. يصف الشّاعر موكب رحيل الحبيبة، ويُشبّه الهوادج بالسّفن العظيمة. تُذكّره هذه المواكب في عظمتها بسُفن المالكيّة وابن يامن. ولئن كان الملّاح يوجّه دفّة مراكبه أنّى شاء، فالحادي يَسوسُ إبِلَهُ، ويقودها بين الكثبان والوديان حتّى تبلُغ مأمنها. ومثلما تَشقُّ مُقدِّمةُ السّفينة الماءَ نصفين، يتوغّل موكبُ الحبيبة في الصّحراء فيشطرها شطرين. عند هذا الحدّ، تتحوّل اللّحظة الطّلليّة إلى عمليّة خلق جديدة للعناصر المكانيّة والزّمانيّة والنّفسيّة. وهو ما يُتيح للوعي الشّعريّ "من تجاوز الواقع وإعادة إنشائه بوصفه عالمًا"[13].

وفي السّياق ذاته، يقول "زُهير بن أبي سُلمى"

"بَكرْنَ بُكورًا واسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ فَهُنَّ وَوادي الرّسّ كَاليَدِ لِلْفَمِ

وَفِيهِنَّ مَلْهًى لِلطّيْفِ وَمَنْظَرٌ أَنيقٌ لِعَيْنِ النّاظِرِ المُتَوسِّمِ

كَأَنَّ فُتاتِ العِهْنِ في كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الفَنا لَمْ يُحَطَّمِ

فَلَمَّا وَرَدنَ الماءَ زُرْقًا جِمامُهُ وَضَعْنَ عصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ

ظَهَرْنَ مِن السُّوبانِ ثُمَّ جَزَعْنَهُ على كُلِّ قَيْنِيٍّ قشيبٍ وَمُفْأَمِ"[14]

يُصوّر الشّاعر موكب النّسوة وهنّ متّجهات نحو وادي الرسّ للاستحمام والتّنزّه، وهو واد قد تعودّن الذّهاب إليه فلا يُخطئنه أبدًا، "فهنَّ ووادي الرسّ كاليد للفم". فقد اعتادت النّسوة قديما الاستحمام واللّهو في مجاري الوديان والبِرك والعيون في أماكن نائية وسط البادية، وقد دلّ على ذلك قول الشّاعر "بَكرنَ بكورًا"، فقد اقتضى بُعد الوادي عن النّسوة الخروج باكرًا. وهنّ على قدر كبير من الجمال، يسرُّ النّاظرين، يمشين في هوادج قد زُيّنت بالصّوف المصبوغ. ولمّا وردن ماء الوادي، وجدنه قد اشتدَّ صفاؤه، واكتملت عذوبته، فآثرن التّخييم والإقامة هناك.

وتبعًا لذلك، يقوم الطّقس المائيّ الطّللي على مبدأ الثنائيات الضدّيّة: الغياب والحضور، العدم والحياة، الحزن والفرح، الوحدة والكثرة.. وإلى جانب ذلك، يُشير الماء في الشّعر العربيّ القديم إلى الحياة والتّجدّد. ويرتبط بمعاني النّماء والخصوبة والحياة. ويدلُّ على

[13] Jean Paul Sartre , ***The imaginary a phenomenological psychology of the imaginayion***, routledge, london, new york, 2004, p 184

[14] حسين بن أحمد بن حسين الزوزني، **شرح المُعلّقات السّبع، «مُعلّقة زُهير بن أبي سُلمى»**، ص 165

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

التّجدّد والبقاء، ويرمزُ إلى الانبعاث والخلق. وهو رمزٌ للولادة والتّغيّر. يُعبّرُ جريان الماء وسريانه الدّائم عن الحياة المُتجدّدة والولادة المُستمرّة. ومثال ذلك، يُصوّر لبيد بن أبي ربيعة السّيول باعتبارها رمزًا للخصوبة. فيقول:

"دِمَنٌ تَجَرَّمَ بَعْدَ عَهْدِ أَنيسِها حِجَجٌ خَلَونَ حَلالُها وحَرامُها

رُزِقَتْ مَرابيعَ النُّجومِ وصابَها وَدْقُ الرّواعِدِ جَوْدُها فَرِهامُها

مِنْ كُلِّ ساريَةٍ وَعادٍ مُدْجِنٍ وَعَشِيّةٍ مُتَجاوِبٍ إِرزامُها

فَعَلا فُروعُ الأيهقانِ وَأَطْفَلَتْ بِالجَهْلَتَيْنِ ظِباؤُها ونِعامُها

والعِيْنُ ساكِنَةٌ عَلى أَطلائِها عُوذًا تَأَجَّلَ بالفَضاءِ بِهامُهَا

وجَلا السُّيولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّها زُبُرٌ تَجِدُّ مُتُونَها أَقلامُها

أَوْ رَجْعِ واشِمَةٍ أُسِفَّ نَؤُورُها كِفَفًا تَعَرَّضَ فَوْقَهُنَّ وِشامُها

فَوَقَفتُ أَسأَلُها وكَيْفَ سُؤالُنا صُمًّا خَوالِدَ ما يَبينُ كَلامُها"[15]

فبعد أن أقفرت الدّيار، ورحل ساكنوها، وجفّت منابعها، ولم يبق منها إلا أعجازُ ديار خاوية، فاستوطنتها الغيلان والوحوش، فُتِحت السّماءُ بماء مُنهمر، ففاض الماء على جانبي الوادي، فاهتزّت الأرض ورَبت، وأنبتت من كلّ زوجٍ بهيج. فتكاثرت الظّباء، وباضت النّعام، وازدادت القطعان في الصّحراء. وقد كشفت السّيول عن بقايا أطلال الدّيار، فكأنّها أقلامٌ تُجدّد سُطورَ كُتبها، وكأنّها وشمُ أُعيد إظهارُه. أثارت المشاهد المُتحوّلة شجن الشّاعر، فعاد به الحنين إلى الدّيار وساكنيها. فوقف يسأل الدّيار عن ساكنيها، ثمّ استدرك كيف يُجدي سؤال أحجار لا تسمع، ولا تتكلّم، ولا تملك له نفعًا ولا ضرًّا. وبرز ذلك في قول الشّاعر: " فَوَقَفتُ أَسأَلُها وكَيْفَ سُؤالُنا**صُمًّا خَوالِدَ ما يَبينُ كَلامُها". ومن ثمّة، يُشكّل الماء معرفة وحنينًا وذكرى وتحوّلا. وهو مدار تغيّر الأحداث وتبدّلها.

وإلى جانب ذلك، يُشكِّلُ الماء في الشّعر العربي طقسًا خمريًّا. وفي ذلك فيقول الشّاعر "عمرو بن كلثوم":

"أَلا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحينا ولا تُبْقي خُمورَ الأَنْدَرِينَا

مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فيها إذا ما الماءُ خَالَطَها سَخِينَا"[16]

[15] م،ن، **مُعلّقة لبيد ابن أبي ربيعة**، صص، 208.207

[16] حسين بن أحمد بن حسين الزوزني، **شرح المُعلّقات السّبع**، **«مُعلّقة عمرو بن كلثوم»** ، صص 275.274

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

وعلاوة على ذلك، يُعتبرُ الماء طقسًا فخريًّا، فقد استعمل الشّاعر عمرو بن كلثوم الماء للإشارة إلى قوّة قبيلته وهيمنتها، وسيطرتها على أعدائها. وتجلّى ذلك في قوله:

"وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا الماءَ صَفْوًا ويَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدِرًا وَطِينَا"[17]

وفي قوله أيضًا:

"وَمَلَأْنَا البَرَّ حَتَّى ضاقَ عَنَّا وَماءُ البَحْرِ نَمْلَؤهُ سَفِينَا"[18]

وقد استعمل "عنترة بن شدّاد" الماء باعتباره رمزًا اعتباريًّا للمُفاضلة بين القبائل. وعبّر عن ذلك من خلال قوله في وصف النّاقة:

"شَرِبَتْ بِماءِ الدُّحْرُضَيْنِ فَأَصْبَحَتْ زَوْراءَ تَنْفِرُ عنْ حِياضِ الدَّيْلَمِ"[19]

بعد شُربها من ماء الدُّحْرُضَيْنِ، أعرضت النّاقة عن كلّ ماء سواه. وتبعًا لذلك، يُشير الماءُ إلى القيمة السّامية والمكانة المرموقة.

وعلاوة على ذلك، يعتبر الماء في البيئة الصّحراوية أحد أكبر العطايا، وعلامة على السّخاء والجود. وفي هذا، يقول امرؤ القيس في تصوير مشهد المطر:

"أصاحِ تَرى بَرْقًا أُريكَ وَميضُهُ كَلَمْعِ يَدَيْنِ في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ

يُضيءُ سَناهُ أو مَصابيحُ راهِبٍ أَمالَ السَّليطَ بالذُّبالِ المُفتَّلِ

قَعَدتُ لهُ وَصُحْبَتي بينَ ضارِجٍ وبَيْنَ العُذَيْبِ بَعْدَما مُتأَمَّلي

على قَطَنٍ بِالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبَهِ وَأَيْسَرُهُ على السّتارِ فَيَذْبُلِ

فَأَضحى يَسُحُّ الماءَ حَوْلَ كَتِفَيْهِ يَكُبُّ على الأذقانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ

ومَرَّ على القَنَّانِ منْ نَفَيانِهِ فَأَنْزَلَ مِنْهُ العُصْمَ منْ كُلِّ مُنْزِلِ

وَتَيْماءَ لمْ يَتْرُكْ بِها جِذْعَ نَخْلَةٍ ولا أُطُمًا إلا مَشيدًا بِجَنْدَلِ

كأَنَّ ثَبيرًا في عَرانِينِ وَبْلِهِ كَبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ

[17] م،ن، ص 284
[18] م،ن، ص 285
[19] م،ن، «مُعلّقة عنترة بن شدّاد»، ص 225

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

كَأنَّ ذُرى رَأْسِ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً من السَّيْلِ والأَغْثاء فَلْكَةُ مِغْزَلِ

وأَلْقَ بِصَحْراءِ الغَبِيطِ بَعَاعَهُ نُزُولَ اليَماني ذِي العِيابِ المُحمَّلِ

كَأنَّ مَكاكِيَ الجِواءِ غُدَيَّة صُبحْنَ سُلافًا من رَحيقٍ مُفَلْفَلِ

كأنّ السّباعَ فيهِ غَرْقَى عَشِيَّة بِأَرجائِهِ القُصْوَى أَنابيشُ عُنْصُلِ"[20]

ارتبط الماء في مُعلّقة امرئ القيس بالمطر، واستهلّ مشهد الأمطار بتصوير البرق. وهو برقٌ شديد اللّمعان، كثير الوميض، مُتقلّب الحركات، يُشبه تحريك اليدين، ينبثق من سحاب كثيف ومتراكم. يُشبّه الشّاعر لمعان البرق بمصابيح الرّاهب الّتي صُبّ عليها الزّيت لتزداد إضاءةً ونورًا. فلمّا رآه عارِضًا مُسْتَقبِل أوديته، قال هذا عارِضٌ مُمْطرنا، فجلسَ وأصحابه بين موضِعين لتأمّل السّحاب، وترقّب الأمطار. فكان ما استيقنتهُ قلوبهم غيمٌ فيه مطرٌ وريح وبرقٌ، يكاد سناه يذهب بالأبصار، ففاضت المُزن، وتحلّق السّحاب حول قَطنٍ والسّتار، وهما جبلان كبيران. فانهمر الودق، وسالت السّيول من قمم الجَبَلين، فجرفت في طريقها الأشجار والصّخور.

أتى هذا الغيث على قرية "تيماء"، فتركها قاعًا صَفْصَفًا، فجرف الأبنية والنّخيل، فأصبحوا لا يُرى إلا ما كان مُشيّدًا بالحجارة الكبيرة والجص. ألقى هذا السّيلُ العَرِمُ أثقاله بصحراء الغبيط مثلما يُلقي التّاجر اليماني أنواع الثّياب للمُشترين، فأنبتت الأرض القاحلة الكلأ، وأنواع الأزهار والنّبات. وانتهت هذه اللّوحة المائيّة بذكر طيور المكاكي والسّباع، أمّا الطّير فقد شربت من وادي الجِواء، فعلا صوتها، وازداد تغريدها، وشبّه ماء الوادي بالشّراب المُفلفل الّذي يحذي اللّسان ويُسكر. وأمّا السّباع فقد حملها السّيل، فتلطّخت بالطّين والماء مثلما يتلطّخ النبات البرّي بالتّراب. تُشكّل هذه الكيانات علامات مرجعيّة. وفي هذا الإطار، يعتبر " رولان بارت" أنّ "كلّ تأويل للعلامات مُستند إلى الفهم المرجعيّ «النّظاميّ» مُناوَءة للمعنى، وهي مناوءةٌ تقرّ الخصومة الأبديّة «الميثيّة» بين المعيش الفينومينولوجيّ، والمُدرَك بالعقل"[21].

وتبعًا لذلك، قام هذا الكون المائي في مُعلّقة امرئ القيس على ثلاثة أقسام: أوّلها، انتظار الماء، وثانيها، نزول الماء، وأخيرًا مآلات الماء. واعتمد على مبدأ الثّنائيات: الأعلى (البرق، السّحاب، المطر..) والأسفل (الجبال، الصّحراء..)، التّرقّب (البرق) والتّحقّق (المطر)، الشّخصيّات الآدمية (الشّاعر وأصحابه)، والكيانات الحيوانيّة (السّباع، الطّيور)، الحركة (السّيول) والثّبات (البيوت، النّخيل)، السّماء والأرض، النّور والعتمة... تُشكّل هذه العناصر وحدات جزئيّة تؤلّفُ مشهدًا مائيًّا كليًّا مُتحرّكًا جوهره الحياة وقد تجسّدت في هيآت مختلفة: البرق والمطر والسّيول والطّير والسّباع والنّبات... وهي عناصر متحرّكة ومتجدّدة. ومن ثمّة، يُعدُّ الماء في شعر امرئ القيس

[20] حسين بن أحمد بن حسين الزوزني، **شرح المُعلّقات السّبع، «مُعلّقة امرئ القيس»**، صص، 18.17

[21] محمد بن عياد، **الكيان والزّمان**، مكتبة علاء الدين ، صفاقس، تونس، ط1، 2018، ص 50

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

صنوا للخصوبة والولادة والتّجدّد والحركة. فبواسطة اللّوحات المائيّة، يُعبّرُ الشّاعر عن انتمائه الوجودي والوجداني لتجربة المكان، و"تُعبّرُ الذّات عن حضورها"[22].

الخاتمة

نخلص في خاتمة هذا البحث، إلى أهميّة الخوض في إشكاليات الماء باعتباره قضية وجوديّة، وتساؤلًا فلسفيًّا، وسمةً شعريّة. وقد توصّلنا إلى مجموعة نتائج:

أوّلا: شكّل الماء جزءًا من مباحث الفيلسوف "غاستون باشلار". ارتبط الماء في تصوّرات هذا الفيلسوف بالخيال الشّعري، والتّحليل النّفسي، والرّموز الميتافزيقيّة. فقد اقترن بدلالات الحياة والموت والحب والتّجدّد. وعلاوة على ذلك، لا يُمثِّل الماء مادة فيزيائيّة وحسب، وإنّما يُعدُّ قيمة اعتبارية وتخييليّة تُثير أحلام اليقظة، وتعكس كيمياء شعريّة وشعوريّة. فتتحوّل الصّور المائيّة إلى مرايا تكتشف فيها الذّات سماتها وجوهرها، وإلى وسيطٍ رمزيٍّ للتّعبير عن مظاهر الصّراع والحدث والشّعور. عند هذا الحدّ، تغدو المياه السائلة أداةً لتصوير جمالية اللّغة والإيقاع. فالكلمات أنهارٌ سائلة، وبِرَكٌ صافية، تُجسّد تدفّق المشاعر وفرادات الشّعر.

ثانيا: يُشكّل الماء في شعر المُعلّقات كيانات رمزيّة متعدّدة الأبعاد والدّلالات. ليس الماء في هذه القصائد مجرّد قيمة حياتيّة ووجوديّة، وإنّما هو مجال رمزيّ يعكس تصوّر الشّاعر الجاهلي للوجود، وعلاقته بالفضاء والمكان. فبواسطة الصّور المائيّة، أبان الشّعراء عن تجاربهم الحسيّة وحالاتهم الرّوحيّة، وتأمّلاتهم في الوجود. شكّل الماء علامة مكانيّة ونفسيّة، وتجلّى ذلك في اقترانه بالأطلال. تُعدُّ اللّحظة الطّلليّة لحظة زمنيّة ومكانيّة ونفسيّة في الآن ذاته. فهي تُشير إلى زمنين متباينين: الرّاهن المُجدب والمُقفر، والماضي الخصيب والمُزهر. يُشبّه الشّاعر موكب الحبيبة بالسّفينة الّتي تشق عباب البحر. وهو ما أثار فيه مشاعر الأسى والحنين واللّوعة. ومن ثمّة، مثّلت الصّور المائيّة مناسبة للتّذكّر وللتّعبير عن الشّوق إلى المكان والحبيبة. هنا يتحوّل الماء إلى استعارة للظّمأ الرّوحي والوجودي. ويتجلّى ذلك في مجموعة ثنائيات ضديّة من قبيل: الظّمأ والارتواء، الجدب والخصب، الحياة والموت... وهو ما يُضفي على القصائد عمقًا فلسفيًّا.

ثالثًا: مثّل الماء رمزًا للكرم وللعطاء، وللفخر والقوّة. فهو يُشير إلى الحياة المتغيّرة، والطبيعة المُتحوّلة. وإلى جانب ذلك، ترمز المشاهد المائيّة إلى الحكمة والنّقاء والصّفاء. مكّنت هذه الصّور المائيّة من بناء معاني مبتكرة. وساهمت في الرّبط بين مختلف أقسام المُعلّقة انطلاقًا من الوقفة الطّلليّة، ومرورًا بقسم الرّحلة، وانتهاءً بالدّخول في الغرض. وعليه، شكّلت اللّوحات المائيّة أكوانًا دلاليّة مختلفة: طلليّة وفخريّة وحِكَميّة واعتباريّة وتأمليّة ووجدانيّة.

[22] Gaston Bachelard, ***la poétique de l'espace***, presses universitaires de France , 3éme édition, 1961, p 12

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved

قائمة المراجع والمصادر:

- بن عيّاد، م. (2021). في المواجهة التأويلية (الطبعة الأولى). صفاقس، تونس: شركة مطبعة كونتاكت، مخبر المناهج التأويلية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس.
- بن عيّاد، م. (2018). الكيان والزمان (الطبعة الأولى). صفاقس، تونس: مكتبة علاء الدين.
- Bachelard, G. (1961). La poétique de l'espace (3ème éd.). Presses universitaires de France.
- Bachelard, G. (1942). L'eau et les rêves : Essai sur l'imagination de la matière. Paris: Librairie José Corti.
- Sartre, J. P. (2004). The imaginary: A phenomenological psychology of the imagination. London & New York: Routledge.

- © 2023 SSJ. All Rights Reserved